المحاضرة التاسعة ـ٠٩ـ
إيجابيات وسلبيات الوجود العثماني

وعند دراسة عوامل الضعف والانحلال داخل الدولة العثمانية لا يستطيع أي مؤرخ نزيه أن ينكر تفاقم عناصر الفساد والرشوة والطغيان داخل الإدارة ولكن من ناحية أخرى من يمكنه أن ينكر أن هذه العناصر نلاحظها في نفس الوقت في دول عربية وإسلامية مستقلة تمامًا عن الدولة العثمانية أي أن الأحكام التقييمية لا تقدمنا خطوة واحدة في فهم هذه الظواهر ولابد من البحث عن عوامل أخرى مشتركة بين جميع هذه البلاد في تلك الفترة، ومن هذه العوامل مثلا البنية الاجتماعية بمميزاتها المشتركة والمستوى الحضاري العام وارتباط النظم السياسية والإدارية بها إلى غير ذلك من موضوعات الدراسة التحليلية الجادة لأسباب التخلف والانحطاط في المجتمعات.

ومما كان يميّز النظم السياسية والإدارية العثمانية في المشرق العربي أنها قلما حاولت أن تحكم هذه الأقطار حكما مباشرا بل تركت كثيرا من الأوضاع السياسية والإدارية السابقة على حالها.

فالمناطق الجبلية أو البعيدة عن مركز الدولة الرئيسي كانت في معظم الأحيان قد بقيت تحت حكم رؤسائها التقليديين، تكتفي الدولة العثمانية منهم بالخطبة باسم السلطان وضرب العملة باسمه ودفع قدر معين من المال في شكل هدية سنوية أو في شكل ضريبة تجسد الاعتراف بالتبعية للدولة العثمانية.

هكذا كانت الأمور مثلا في المناطق الكردية وفي لبنان وبعض أجزاء سوريا وبعض مناطق شبة الجزيرة العربية، وكذلك كانت عشائر البدو شبه مستقلة، يحكمها شيوخها حسب التقاليد والأعراف البدوية وتتم تولية هؤلاء الشيوخ في كثير من الأحيان من طرف كبراء العشيرة، ويقتصر دور الدولة العثمانية على الاعتراف بهذه التوليات والاعتماد على هؤلاء الشيوخ في بعض المهام كحراسة قوافل الحج والقوافل

التجارية وضمان بعض وسائل النقل والمواصلات وفي بعض الأحيان المشاركة في الحروب وفي قمع الثورات والاضطرابات...الخ.

١- سلبيات الوجود العثماني:

أ- كان الحكم العثماني سطحيا محدودا فقد أعطى العصبيات المحلية والطوائف الدينية قدرا من الحرية، فاحتفظت كل طائفة بعاداتها وتقاليدها. همه الوحيد المحافظة على الأمن الداخلي وجمع الضرائب وتنظيم القضاء. كما سبق الإشارة إلى ذلك في المدخل.

ب- لم يحاول العثمانيون إيجاد أي نوع من التعاون بين البلاد العربية سواء أكان اقتصاديا أم ثقافيا. وظلّ كل بلد من البلدان العربية يتابع حياته الخاصة ضمن المجموعة العثمانية العامة.

ج- يرى بعض المؤرخين أن الوجود العثماني في البلاد العربية كان عاملا هاما في تأخر البلاد العربية. غير أن الباحثين قد اختلفوا في هذا الأمر، وفي تقدير الضرر الذي لحق بالبلاد من النواحي الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والسياسية، بسبب أن البلاد العربية نفسها كانت متأخرة في هذه النواحي عند الفتح العثماني، وأن التسلط الأجنبي عليها قد انحدر وسياستها إلى الحضيض، ففقدت بذلك كثيرا من مزاياها العلمية والثقافية والاجتماعية غير أن الدولة العثمانية مسؤولة عموما إلى حدّ كبير عن استمرار تأخرهم في هذه النواحي تأخرًا كبيرًا.

د- عجز الدولة العثمانية في النهوض بالعرب لأنها هي في الأصل دولة عسكرية جهادية تنقصها المؤهلات الثقافية والحضارية، فهي دولة محافظة، دولة عدم تجديد، بل دولة جمود وكل همها أن تبقى الأشياء على ما هي عليه. وإن كان بعض المؤرخين لا يؤيدون ذلك.

هـ- تركها للبلاد العربية في حالة فوضى من حيث الإدارة والأمن. وكان سوء سياسة الدولة وسلوك كثيرا من الولاة عاملا من أهم عوامل الفوضى لافتقارهم للكفاءة

وفساد بعضهم وقبولهم للرشاوي حتى يستعيدوا ما دفعوه من رشى مقابل حصولهم على ذلك المنصب.

و- أنه لأول مرة في التاريخ تنقل عاصمة البلاد العربية إلى خارج الوطن العربي ولأول مرة تصبح لغتها الرسمية غير اللّغة العربية، رغم أن السلطان سليم الأول فكر في اتخاذ اللّغة العربية وجعلها لسان الحكومة الرسمي وحاول بالفعل فلم ينجح[1]. ويعيد ذلك بعض المؤرخين إلى كثرة التكالب الأوربي عليها وانشغالها به حال دون تحقيق ذلك.

ز- اعتبار التطور الحضاري من عمل الأعداء مما جعل الجهل والجمود يتفشيان في أركان الدولة ناهيك عن الإستعلاء الذي كان سمة العثمانيين جميعا حاكما ومحكومًا.

ما يؤخذ على العثمانيين في بلادنا هو عدم العمل على تقريب الشعبين الجزائري والتركي ثقافيا، وذلك بالإهتمام بالجانب التعليمي للّغتين التركية والعربية على السواء.

ولم ينشؤوا مدرسة واحدة لتعليم اللّغة التركية، فكان حتى بالنسبة لأتراك الجزائر أنفسهم، على الذي يريد تعليمها أن يرحل إلى تركيا، أو يستقدم إلى الجزائر أساتذة مختصين فيها[2]. ولهم العذر في ذلك ربما لإدراكهم بأن لغتهم لم تكن لغة حضارة ولا علم ولا ثقافة.

في الجزائر كذلك عملت الدولة العثمانية على عزل الأتراك عن الجزائريين وحصرهم في محيط ضيق ومنعتهم من الاختلاط بالأهالي، وذلك لتتمكن من مراقبتهم سياسيا وتتبع خطواتهم[3] لأن هاجسها الوحيد في ذلك خشية الانفصال عن الخلافة وتعرض وحدتها للتفكك.

---

[1]- عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، د3، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، ص١٣.

[2]- عمار هلال، العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية فيما بين القرنين التاسع والعشرين الميلاديين "٣-٤هـ"، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ٢٠١٠م، ص ٣١٢.

[3]- نفسه.

ح- طبيعة المجتمع العثماني في ذلك الوقت لم تتهيأ بشكل كافٍ لاستقبال البذور الحضارية وتنميتها. وقد يكون لبنية الدولة ونظامها الدور السلبي إلى جانب العوامل المجمعية الأساسية.

ط- إن الوظائف المحدّدة للدولة العثمانية كانت لا تتجاوز الحرب "الجهاد" في الخارج وحفظ الأمن في الداخل وتحصيل الضرائب وتوزيعها على مختلف أوجه الإنفاق، وإقامة نظام قضائي يفصل في الخصومات بين الناس، أي أنها كانت تهمل أهم النشاطات الإيجابية التي كانت الدول الأوربية الغربية مثلاً قد بدأت تضطلع بها تدريجيا في العصور الحديثة مثل التعليم والعلاج وتشجيع وتوجيه مختلف النشاطات الاقتصادية...

ي- بعد تولي جماعة الاتحاد والترقي الحكم في الدولة العثمانية "١٩٠٨-١٩١٨م" فتحت باب العداء بين الأتراك والعرب بسياسة التتريك والتعصب للقومية الطورانية والاستعلاء القومي والقمع مما دفع زعماء الحركة العربية إلى الثورة عليهم عام ١٩١٦م، بعدما أشعل الجاسوس الإنجليزي "توماس لورانس" الحماس القومي لديهم في الحجاز والشام ففضلوا الإنضمام إلى الحلفاء على البقاء في جوار الأتراك المسلمين رغبة في إقامة دولة عربية موحدة يحكمها ملك عربي، وهو الحكم الذي أراد الشريف حسين تحقيقه بمحالفة الإنجليز في الحرب العالمية الأولى[٤].

ك- لم يحاولوا صبغ الولايات الإسلامية بالصبغة العثمانية. وكانت تلك السلبية ترجع إلى سببين، وهما سطحية الحكم العثماني والإستعلاء. وقد حال هذا الإستعلاء الذي تعددت مظاهره دون قيام تقارب بين الحكام والمحكومين، وجعل العثمانيين يعيشون بمنأى عن الشعوب الإسلامية، ولولا الرابطة الدينية والمذهب السني اللّذان يربطان ويوحدان بينهما لكان التباعد بينهما تامًا[٥].

---

[٤]- قيس جواد العزاوي، الدولة العثمانية، قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، الدار العربية للعلوم، ط٢، بيروت، لبنان، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م، ص ١٤٧.

[٥]- عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج١، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، ٢٠٠٤م، ص ٢٥٥.

ل- رغم أن المجتمعات في ذلك الوقت كانت مجتمعات دينية إسلامية وكان الدين عاملا مهما في تكوين عواطف الجماهير الإسلامية، وبالتالي في التخفيف من حدّة هذا التباعد بين العرب والأتراك العثمانيين[٦].

م- عدم زواج الأتراك العثمانيين من سيدات الشعوب الإسلامية التي خضعت لهم للنظرة الإستعلائية التي كانت تغمر نفوسهم.

ن- عدم الإندماج والإنصهار بين الأتراك العثمانيين وأهالي الولايات الإسلامية ولم يحدث تتريك جنسي لهذه الشعوب الإسلامية. لذلك انكمشت اللّغة التركية على نفسها في الولايات الإسلامية، فلم تكن تستخدم إلا فيما بينهم وكانوا قلة بالنسبة لتعداد السكان وكانت السلطات العثمانية تعمد إلى ترجمة الفرمانات المهمة والأوامر الحكومية إلى اللّغة العربية[٧]. وهكذا تعددت مظاهر العزلة بين الطرفين[٨].

كان حصاد هذه السياسة أن احتفظت الشعوب الإسلامية، وهي في ظل الحكم العثماني بلغتها وثقافتها وعاداتها وتقاليدها وغيرها من عناصر حضارتها، وكانت من أهم المقومات التي استندت إليها حركة القومية العربية في أواخر القرن ١٩م[٩].

هذه السلبيات لا تنسينا الانجازات العظيمة لكثير من رجال الدولة العثمانية العظام المخلصين من سلاطين وخلفاء آل عثمان ورجالهم في البلاد العربية، الأوفياء للإسلام والمسلمين.

٢- إيجابيات الوجود العثماني:

أ- تحرير البلاد العربية من الاستعمار الصليبي في شمال إفريقيا "عدا المغرب الأقصى" والتحالف الصليبي البرتغالي الحبشي على البقاع المقدسة والمماليك والصليبي البرتغالي على سواحل الجزيرة العربية واليمن ومشيخات الخليج العربي والتحالف البرتغالي الصفوي على العراق والخليج. فلولا الدولة العثمانية لما بقيت كل

---

[٦]- نفسه.

[٧]- نفسه، ص ٢٥٦.

[٨]- نفسه، ص ص ٢٥٦، ٢٥٧.

[٩]- عبد العزيز محمد الشناوي، (المصدر السابق)، ص ٢٥٧.

هذه البلاد عربية مسلمة، بل أصبحت مسيحية إسبانية وبرتغالية اللّسان كما وقع لشعوب أمريكا الوسطى والجنوبية، باستثناء العراق الذي سيصبح فارسي اللّسان وشيعي المذهب.

ب- توحيد بلاد العرب بعدما كانت دويلات متفرقة لا جامع سياسي يجمع بينها، ضمت كلها للدولة العثمانية وأصبحت تخضع لحكم واحد، ولا يخفى ما لذلك من قيمة.

ج- لقد عاشت بلاد العرب مشرقا ومغربا "باستثناء المغرب الأقصى" في نِطاق الحكم العثماني باعتبار الدولة العثمانية دولة امتداد الإسلام والخلافة راضية ومقرّة بشرعيتها في ذلك. ورغم ظهور بعض الحركات التمرّدية والإنفصالية ضد الولاة العثمانيين وليس ضد الخليفة العثماني إلا أن هذه الحركات لم ترق إلى حركات متجذرة في منطقة قيامها ولم يكن لها طابع قومي. "فقد قام بها بعض الزعماء أو الباشوات بقصد الإستحواذ على السلطة فقط والاستقلال ببعض الأقاليم".

د- تمسك العرب بثقافتهم العربية رغم ضعفها، فقد بقيت اللّغة العربية لغة القرآن الكريم هي اللّغة السائدة وبقي التعليم العربي الإسلامي ممثلا في الأزهر الشريف في مصر، والزيتونة بتونس والجامع الأموي بدمشق، وغير ذلك من المساجد في المدينة المنورة وبغداد والبصرة وغيرها. وهكذا كانت القوة العربية قوة روحية إلا أن الولاء للخليفة السلطان العثماني خليفة المسلمين، كانت أقوى أثرا من العاطفة القومية. فقد تمسك العرب بولائهم للسلطان والدولة ورأوا أن خروجهم عن الدولة خروج عن الإسلام.

هـ- كانت اللّغة العربية هي اللّغة الرسمية المستعملة في البلاد العربية في القضاء والإدارة إلا ما كان منها ذا علاقة ببلاد الترك.

و- كان العرب شركاء العثمانيين في الحكم فكان منهم الوزراء والمستشارين والولاة، والقادة ولم يكن ما يفرق بين التركي والعربي والكردي والشركسي والألباني...

والآن بعدما تطرقنا إلى سلبيات وإيجابيات الوجود العثماني في البلاد العربية، هناك كلمة للتاريخ ومن باب الإنصاف الإجابة عليها لكثرة تداولها هذه الأيام وهي: هل كان الوجود الإستعماري في تلك البلاد استعمارًا؟.

١- إن الاستعمار الأوربي يركز كثيرا على أن العثمانيين كانوا مستعمرين في كل بلد يحلون به. يقولون بأنهم جاؤوا أو أتوا إليهم لإنقاذهم من الاستعمار العثماني[١٠]. ومثال ذلك عندما دخل الفرنسيون الجزائر أعلن قائد الحملة أنه جاء لإنقاذ الجزائر من الاستعمار التركي وكانت النتيجة أنهم قضوا على استقلالها واستعمروها ١٣٢ سنة أسوأ استعمار[١١].

٢- وعندما استولى المستعمرون على البلاد العربية العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى أخذوا يغرسون في نفوس أبناء تلك البلاد أن الدولة العثمانية كانت في بلاد العرب استعمارا مستعمرة وسار أبناء تلك البلاد خاصة الذين تلقوا تعليمهم عن المستعمرين يسمون الحكم العثماني في بلاد العرب استعمارًا[١٢].

٣- إن العالم كله يعرف تسامح الدولة العثمانية مع العناصر الغربية عنصرا وقومية ودينا قد بلغ حدًا لم يبلغه أي قوم في العالم. فما بالك العرب الذين كانوا إخوانًا لهم متساوين لهم في الحقوق والواجبات كما سبقت الإشارة لذلك سابقا.

فالأتراك كما تنشر الكثير من المصادر كانوا لا يفرقون بين التركي وبين العربي والبلغاري والروماني وغيرهم وكانوا يولونهم الوزارات والإمارات وهم على دينهم أحيانا أو بعد إسلامهم في بعض الأحيان فكيف يصح أن نقول بأن العثمانيين كانوا مستعمرين؟!

كما قال المحقق الدكتور إحسان حقي في كتاب تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٧٣٩ مستشهدًا بما كتبه عبد الرحمن عزام باشا "أول أمين عام للجامعة العربية بعد تأسيسها" في جريدة الأهرام يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٤٤م منصفًا الدولة العثمانية[١٣].

«... لم يكن فوز آل عثمان مستمدا كما يظن بعض الناس من السيف والشجاعة بل كان مما هو أعظم من السيف والشجاعة، وهو احترام الحق والوفاء

---

[١٠]- محمد فريد بك المحامي، (المصدر السابق)، ص ٧٣٨. وأنظر كذلك: عبد الرؤوف سنو، النزعات الكيانية الإسلامية في الدولة العثمانية "١٨٧٧-١٨٨١م"، بيسان للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٨م، بيروت، لبنان، ص ٣٢.

[١١]- محمد فريد بك المحامي، (المصدر السابق).

[١٢]- نفسه.

[١٣]- للإطلاع أكثر "أنظر نفسه"، ص ص ٧٣٩، ٧٤٠.

بالعهد والخضوع لسلطان القانون والشرع. ولو لم يكن ذلك لا ستحال أن يدوم ملك آل عثمان أكثر من ستمئة "٦٠٠" سنة منها مئتا "٢٠٠" سنة لا يساندهم فيها إلا سيف مبتور...»[١٤].

دولة العثمانيين أطول دولة في التاريخ عمرا ولا يطول عمر الدول إلاّ بحضارة وعدل[١٥].

أما معاداة العثمانيين فهي قضية يحمل لواءها في البلدان العربية وغيرها أصحاب المذاهب المعادية للإسلام. والسبب إسلامية الدولة العثمانية، لذلك لا يناصر تاريخ العثمانيين وحضارتهم إلا الذين آمنوا بالإسلام تاريخا وحضارة[١٦].

وأحسن من عبر عن الصور المشرقة للعثمانيين من باب الأمانة التاريخية والإنصاف العلمي ما جاء في كتاب تاريخ أوربا الحديث لمؤلفه جفري برون ترجمة علي المزروقي الذي حدّد صورهم المشرقة في عشر نقاط هي:

١- توسيع رقعة الأرض الإسلامية، إذ فتح العثمانيون القسطنطينية وتقدموا في أوربا مما عجز عنه المسلمون من قبلهم من أيام معاوية وساروا فيها شوطًا بعيدا حتى وقفوا على أبواب فيينا وحاصروها أكثر من مرة من دون جدوى.

٢- الوقوف في وجه الصليبيين على مختلف الجبهات فقد تقدموا في شرقي أوربا ليخففوا الضغط عن المسلمين في الأندلس كما انطلقوا إلى شمال البحر الأسود ودعموا التتار ضد الصلبيين من الروس هذا فضلا عن التصدي للإسبان في البحر المتوسط والبرتغاليين في شرق إفريقيا والخليج ولم يقفوا في حملاتهم وذلك يرجع لعدم تكاثف المسلمين والتفافهم حولهم.

٣- عمل العثمانيون على نشر الإسلام، وشجعوا على الدخول فيه، وقدموا الكثير في سبيل ذلك وعملوا على نشره في أوربا، وعملوا على التأثير في المجتمعات التي يعيشون بينها.

---

[١٤]- محمد فريد بك المحامي، (المصدر السابق، كلمة المحقق إحسان حقي)، ص ٧٤٠.

[١٥]- محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة (المرجع السابق)، "المقدمة"، ص ٠٧.

[١٦]- نفسه، ص ٠٨.

٤- إن دخول العثمانيين إلى بعض الأقطار الإسلامية قد حماها من الاستعمار التي ابتلت به غيرها في حين أن المناطق التي لم يدخلوها قد وقعت فريسة للاستعمار باستثناء دولة المغرب.

٥- كانت الدولة العثمانية تمثل الأقطار الإسلامية، فهي مركز الخلافة، لذا كان المسلمون في كل مكان ينظرون إلى الخلافة وإلى الخليفة نظرة احترام وتقدير، ويعدون أنفسهم من أتباعه ورعاياه، وبالتالي كانت نظرتهم إلى مركز الخلافة ومقرها المحبة والعطف وكلما وجد المسلمون أنفسهم في ضائقة طلبوا الدعم من مركز الخلافة كما كان الخلفاء[١٧].

٦- وكانت الخلافة العثمانية تضم أكثر أجزاء البلاد الإسلامية فهي تشمل البلاد العربية كلها باستثناء المغرب إضافة إلى شرقي إفريقيا وتشاد وتركيا وبلاد القفقاس وبلاد التتار وقبرص وأوربا، بحيث وصلت مساحتها حوالي ٢٠ مليون كيلومتر مربع.

٧- كانت أوربا تعامل العثمانيين على أنهم مسلمون لا بصفتهم أتراكا، وتقف في وجههم بحقد صليبي وترى فيهم أنهم قد أحيوا الروح الإسلامية القتالية من جديد، أو أنهم أثاروا الجهاد بعد أن خمد في النفوس مدة من الزمن، وترى فيهم مدًا إسلاميا جديدا بعد أن ضعف المسلمون ضعفا. وتنتظر أوربا قليلا لتدمرهم، والأتراك العثمانيون حالوا بينهم وبين المدّ الصليبي في الشرق والغرب الإسلامي، الأمر الذي جعل أوربا تحقد على العثمانيين وتكرههم[١٨].

٨- كانت للعثمانيين بعض الأعمال الجيّدة تدل على صدق عاطفتهم وإخلاصهم مثل عدم قبول النصارى في الجيش وإعفاء طلبة العلم الشرعي من الجندية الإلزامية، وكذلك إصدار المجلة الشرعية التي تضم فتاوي العلماء في القضايا كافة وكذلك احترام العلماء وانقياد الخلفاء للشرع الشريف والجهاد به وإكرام أهل القرآن وخدمة الحرمين الشريفين والمسجد الأقصى.

---

[١٧]- جفري براون، تاريخ أوربا الحديث، ترجمة: علي المزروقي، الأهلية للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، عمان، الأردن، ٢٠١٤م، ص ص ٥٤٠، ٥٤١.

[١٨]-

٩- وكان للعثمانيين دور هام في أوربا إذ قضوا على نظام الإقطاع، وأنهوا مرحلة العبودية التي كانت تعيشها في أوربا حيث يولد الفلاح عبدًا وينشأ كذلك ويقضي حياته في عبودية لسيده مالك الأرض. واهتم السلاطين بتقديم الصدقات والعطايا للمواطنين.

١٠- إن العثمانيين هم الذين أزالوا من خريطة العالم أعتى إمبراطورية صليبية هي الإمبراطورية البيزنطية، وفتحوا عاصمتها[١٩].

وصفوة القول، إنه مهما قيل عن المماليك والعثمانيين، فإنهم كانوا من المسلمين ولذا فإن الشعب في العالم العربي لم يعتبرهم غرباء.

إن الحملة الفرنسية على مصر فتحت حقبة جديدة من الصراع الاستعماري بين فرنسا

[١٩]- جفري براون، تاريخ أوربا الحديث، ترجمة: علي المزروقي، الأهلية للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، عمان، الأردن، ٢٠١٤م، ص ٥٤١.